بين مسكين الدارمي وأحلام مستغانمي

خالد محمد الشامي
khmhss@gmail.com

كان اللون وسيظل أكثر المرئيات إثارة للأحاسيس ، أكان ذلك حبا أم بغضا ، سعادة أم حزنا، سلما أم حربا.
أشهر التفرقات العنصرية كانت بسبب اللون ، وأوضح دلالات الحرب كان جريان الدم الأحمر ، وأولى علامات نهاية الحرب رفع الراية البيضاء ، وأكثر علامات الهلع الوجودي ارتداء الأسود.
كان اللون الأسود لدى البشرية هو الأكثر ارتباطا بالمآسي ، منذ شهد الغراب الأسود أول سفك للدم بشري ، ومن بعدها صار رمزا لكل ما هو سلبي ، وحول المعتاد إلى مستغرب.
وكان الشعر كثير الاحتفاء بهذا اللون، كرمز واضح الدلالة بين الشاعر وجمهوره لإيصال ما يريد بأقل كلفة ، وأكثر إيحاء.
ولذلك تجنب الناس التعامل مع الأسود في الغالب تجنبا للشؤم ومراعاة لإعجاب الآخرين ورضاهم، وباعتبار النساء الأكثر اهتماما وحساسية للألوان فقد كان هذا اللون غير مرغوب عندهن، إلا فيما اقتصر على الخلقة الموهوبة من الخالق، فقد اضطروا واضطررن إلى القبول به مع ذم بعضه كسواد البشرة، ومدح بعضه كسواد العينين والشعر، هذا قبل أن تظهر العدسات والباروكات.
وفي التجارة مثلا عانى بعض التجار من كساد بضاعته لا لشيء إلا لأنه أساء اختيار اللون ، ومن أمثلة ذلك ما حدث لذلك التاجر في العصر الأموي حين كسدت تجارته من الخُمُر - (جمع خمار) – ذات اللون الأسود ،عند نساء المدينة ،ولم ينقذه من محنته إلا الشاعر مسكين الدارمي حين عرض عليه أن يكون منبره الدعائي في ترويج بضاعته، مقابل حصوله على جزء من الربح ، فوافق التاجر، وسار الدارمي في الأسواق وهو يردد بصوته الشجي:

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد ؟!
قد كان شمر للصلاة ثيابه حتى عرضت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

وشاع الخبر في المدينة ،وتوافدت النساء على ذلك التاجر كل واحدة منهن تريد الظفر بخمار أسود ليصدق عليها قول مسكين الدارمي.
في القرن العشرين ستتكرر الصورة وإن بأساليب وحيثيات أخرى ، من خلال الرواية الأشهر والأجمل (الأسود يليق بك) ، وقد بدأ مفعولها السريع يظهر على بطلة الرواية نفسها(هالة الوافي) التي كانت ترتدي الأسود كتعبير عن حزنها على والدها وشقيقها اللذين قتلا خلال أعمال العنف الشهيرة في الجزائر ، ثم صارت ترتديه رغبة في إرضاء ذوق شخص دخل حياتها فجأة عن طريق وسائل عدة ، كان أشهرها عبارته التي أرفقها بإحدى باقات الورد (الأسود يليق بك) ، ولم يكن ذلك سوى رجل الأعمال (طلال هاشم) ، الذي أدت عبارته تلك مفعولها الدعائي بصورة تفوقت على دعاية منافسه الإعلاني (مسكين الدارمي).
ودليل ذلك كما سبق هو بدء سريان تأثيرها ونتائجها في المحضن الأساس (الرواية). حيث استطاع (طلال هاشم) من تحويل اللباس الأسود عند (هالة) من رمز تعبيري عن الحزن ، إلى رمز تجعل منه جسرا لإشباع رغبة الطارق الجديد في حياتها ،وصار الأسود مرتبطا به دون أن يغدو مرتبطا بما كانت تهدف إليه قبلا ، ولذلك حينما اختلفت معه ورغبت في التخلص كل شيء يذكرها به ، كانت أولى الذكريات التي خلعتها هي الأسود الذي لم يعد يليق بها ، ونسيت ثأرها القديم مع الإرهاب.
أما التأثير الدعائي الحقيقي فهو المنعكس على الواقع، فقد بدأ رواج العبارة قبل رواج البضاعة ، صارت تتردد في بعض الكتابات ، وفي عدد من التعليقات على مواقع التواصل الاجتماعي.
غير أن تأثير الدارميين الجدد سينعكس - وإن بصورة غير مباشرة - على سلوك القراء خصوصا منهم النساء، ولذلك فلا تستغرب أن تجد إحداهن في اليمن مثلا وهي تتمثل تداعيات الرواية وأصداءها - حين ترتدي الأسود - أكثر من استدعاءها لمطلب شرعي ، وبدلا من أن تجدها تستحضر في ذهنها أقوالا تصفها بالغراب الأسود تجدها تزهو لأن الأسود يليق بها.
لكن ثمة سؤال: هل ستتوحد الكاتبة بروايتها فيصبح الأسود لونها المفضل ؟!أم أن شركات الإعلان لا تبالي بمشاعر المعلنين قدر اهتمامها بجيوبهم ؟!

وأردد.. متى ..؟

بلقيس أحمد الكبسي

وانزلق ..! كانت الأرض ترج من تحتي وتموج بسيل زلق ، والسماء تهطل بقطرها كسياط عليّ ، بينما الأقدام تتراكض باحثة عن ملجأ ، ولا عاصم لي ..! أنا لوحدي .. أحاول عبثا أن أحرك قدمي المزروعتين في الأرض ، كل شيء حولي يثبتني إليه بغضب ، والأرض تشدني إليها بتملك ، أحاول انتزاع نفسي منها بلا فائدة .
حيث أنا مغروسة في أرضي أتخبط ، أنت معلق في سمائك تنظر إليّ بتبلد ، يدهشك ما يحدث لي ، وما حل بيّ في غيابك .. ومن بعدك ..! أشد ما استطعت لانتشل قدمي من هذا الفخ المريب .
لا شيء يذكر أنجزته ، لا شيء حولي سوى تراب وماء ، وضباب يلتهمني ببطء ، بينما الأرض غيضت ماءها والسماء أقلعت ، فاستويت على جودي الدهشة ، أمعن النظر في الأفق ..! عليّ أرنو إليك وأنت معلق في السماء ، بدت لي ملامحك بعيدة .. مددت يدي إليك ظننتني سأصل . فلا يمنحني القدر مهجتي ، تسخر مني الأرض هامسة لي بتشفي :
محاااااااال ..! أيتها الواهمة أنتِ هنا عالقة بي وهو هناك حيث البعد البعيد .
رجوتها أن تطلق أسري علي أصل إليك ، فرفضت وهي تسكب همسها إلى مسامعي بخبث موجع :
لا فكاك ..عندما أمل منك أطلقك ، عندها لا حاجة بتشبثك بي .. أو تشبثي بك .
ظللت مكاني ، وأنت هناك تراني صامتاً ، تبتسم ..! وينبثق نور ما من عينيك كأنه شعاع ، تسلطه على وجهي ، فارفع ذراعي المسبلتان بصعوبة لأحمي عيني من سطوعك ، أرفع نظري .. أتقصى وهجك ، فأراك معلق في البعيد ، لا أميزك ..! مع أني أحفظ ملامحك من زمن مضى ، لكنك تبدو مغايراً ، تبدو مشرقاً كملاك بهي تفيض سعادة وقد تزيد .
ولما لا ..! أنت في نقاء السماء ، وأنا في وحل الارض أتهدج حزنا ، ادعي السعادة ولا أتقن الادعاء ، وإن خدعت نفسي .. وحدك من تعرفني بأني لست من أدعي أني هي . فهل تعلم أني لم أعد كما تركتني ..!
لقد محقتني الأيام بقسوتها ، وأخذت مني براءتها التي لم تعهد مني سواها ، وزرعت فيني عنفها والألم ، ولم أعد أملك في غيابك سوى ذاكرة تأكلني حد الوجع ، فانكفئ عند محطاتها أنزف جرحي ، وأخط عبثاً لثأرك الأكبر ، لعلي أغسل ترهات هذا الزمان ، لعلي أشفى من البعد الأليم ، لعلي أكون تلك التي تركتها قبل يوم الذبح العظيم .
ولا شيء أمامي سوى أن أحن .! وينتابني الفقد الموجع ، ولا شيء بيدي سوى أن أبحث عنك فلا أجدك .. أناديك فلا تجيب .. تسمعني ولا أسمعك .. وأراك وقد لا تراني وأطيل النظر الى محياك .. أغمض عيني .. أفضي إلى نفسي .. ألتحم مع روحي .. أتماهى بتوحدي .. أغوص في صمتي .. وأردد .. متى ..؟!
و ... ! وأردد متى ..؟

لإهداء : إلى كل معلم و معلمة في هذا الوطن

إخوةُ الرُسُل

يحيى الحمادي

قَبِّلْ يَمِينَكَ عَنْ فَمِي إجْلالا
و اخْتَلْ, فَمِثْلُكَ حُقَّ أنْ يَختَالا
و ارفَع جَبِينَكَ لِلسَّمَاءِ فَأنتَ مَن
رَفَعَ الجَبَاهَ وجَيِّلَ الأجيَالا
و اقبَل قَصِيدَةَ شَاعِرٍ كَلِمَاتُهُ
تَرْنُو إليكَ فَتَرْكُضُ استِعجَالا
أنتَ الذي بَذَرَ الكَلامَ بِصَدرِهِ
طِفلاً, فَجَاءَكَ سَاكِباً كَيَّالا
لولاكَ بَعدَ اللهِ ما قَرَأَ اسمَهُ
أو مَيَّزَ الأسماءَ و الأفعَالا
و لَمَا تَفَتَّحَ ذِهنُهُ مِن بَعدِ أنْ
رَسَمَ الحُرُوفَ و شَكَّلَ الأشكَالا
"قُمْ لِلمُعَلِّمِ" قالَ لِي, فَتَبَسَّمَت
رُوحِي, و إنِّي قَائِمٌ مُذْ قَالا
لا لَستُ أكْفُرُ حَقَّهُ و جُهُودَهُ
و شَهَادَةُ تِلكَ الخَوَالِي, لا لا
يا غَارِساً شَجَرَ الكَلامِ, و كَانِساً
كَدَرَ الظَّلامِ, و طَامِساً أغلالا
شُكرَاً, و ما شُكرُ الكَرِيمِ سِوَى يَدٍ
تَرجُو المَزِيدَ و تَرتَجِي الإكمَالا
شُكراً لِكُلِّ مُعَلِّمٍ مِن قَلبِهِ
طَلَعَ الصَّبَاحُ, و لَم يَنَل مِثقالا
شُكراً لِكُلِّ دَقِيقَةٍ مِن عُمرِهِ
بَذَرَت بِلادَاً, و اجتَنَت أقوَالا
شُكراً لِمِهنَتِهِ النَّبِيلَةِ إنَّها
أُختُ النُّبُوَّةِ لا تُدِرُّ المَالا
شُكراً لِمَوطِنِهِ الذي لَمَّا يَزَل
يَضَعُ الشَّرِيفَ و يَرفَعُ المُحتَالا
شُكراً, و شُكراً لِلذِينَ تَغَوَّلُوا
بِحُقُوقِهِ, و استَفحَلُوا استِفحَالا
••••
وَطَنِي.. أيَعقَلُ أن يَبِيتَ مُعَلِّمٌ
رَهْنَ الخَصَاصَةِ يَشتَكِي الإهمَالا
و هُوَ الذي لِمَقَامِهِ لَو أنصَفُوا
لَبَنَوا لِكُلِّ مُعَلِّمٍ تِمثَالا
أوَلَيسَ مَن دَرَسَ الوَزِيرُ بِصَفِّهِ
و تَشَرَّبَ الدُّكتُورُ مِنهُ الدَّالا؟
أوَلَيسَ مَن رَسَمَ الطَّرِيقَ لِكُلِّ مَن
مِن رَاحَتَيهِ تَعَلَّمُوا التِّرحَالا؟
و فَخَامَةُ الـ.., و سِيَادَةُ الـ.., و سَعَادَةُ الـ..
أوَلَم يَنَالُوا فَضلَهُ أطفَالا؟
مَا بَالُهُم لَمَّا ارتَقَوْا تَرَكُوهُ فِي
دَربِ العَنَاءِ يُصَارِعُ الأهوَالا؟!
مَن ذَا الذي مِن حَاجَةٍ لَم يَستَلِف
زَادَاً, و مَن ذَا لَم يَبِعْ جَوَّالا؟
مَن ذَا الذي لَم يَرتَعِد لِسَمَاعِهِ
صَوتَ "المُؤَجِّرِ" زَامِراً طَبَّالا؟
مَن ذَا مِنَ الجَمْعِ الغَفِيرِ يَقُولُ لِي
بِمَعَاشِهِ قَد سَدَّدَ البَقَّالا؟
مَن ذَا الذي.. مَن ذا الذي.. مَن ذا الذي
كَم سَوفَ أحكِي ضَارِبَاً أمثَالا
••••
و يُقَالُ لِي "حُلْمُ المُعَلِّمِ" حُلْمُهُ
أنْ لا يَعِيشَ لِهَمِّهِ حَمَّالا
أنْ لا يُغَادِرَ بَيتَهُ مُتَخَفِّيَاً
مِن سَائِلِيهِ, مُكَابِدَاً إذلالا
شَاخَتْ يَدَاهُ و حَاجِبَاهُ, و إنَّهُ
مَا زَالَ يَشحَذُ حَقَّهُ مَا زالا
لَكِنَّهُ سَيَنَالُهُ بِكِفَاحِهِ
قَصُرَ الزَّمَانُ بِظُلْمِهِ أو طَالا

تناولها الباحث عبدالجليل الخرساني في كتابين:

قضايا السكان والتربية والتنمية

<،، إن ما يميز عصرنا هو تشابك وتعقد ظواهره ومشكلاته وخاصة تلك التي تمس مختلف جوانب حياة الإنسان وتأكيد الدراسات العلمية على علاقة وارتباط تلك المشكلات ببعضها مما فرض تكاتف العلماء والباحثين من مختلف التخصصات العلمية وفرض اتجاه العلوم نحو التكامل من أجل الوصول إلى المعرفة التي تمكن من الفهم الأفضل للظواهر والمشكلات المختلفة باعتبار ذلك ضرورة منجهية.
إن ترابط المشكلات والظواهر التي تواجه الإنسان والمجتمعات وتأكيد الدراسات العلمية على العلاقة بين الروحي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي وعلى أنها ليست علاقة تتابع وإنما هي علاقة ترابط وتواز، حيث لا يغيب أحدها الآخر وبالتالي لا يمكن النظر إليها بمعزل عن بعضها كونها تشكل عناصر شديدة الارتباط فيما بينها.
إن الرؤية الشاملة لمشكلات وظواهر عصرنا المختلفة ضرورة منهجية تتكامل فيها الابعاد الاجتماعية بجوانبها السكانية والتربوية التعليمية ابتداء من امتلاك القدرة على فهم المشكلات الوطنية المختلفة وأولوياتها ووضع الاستراتيجيات والخطط والسياسات وتخصيص الموارد المختلفة واتخاذ القرارات السليمة سوف يساعد على نجاح الفعل التنمو وتوجيه المستقبل وتجاوز تحدياته.
واليمن عاشت قبل وبعد ثورة 26 سبتمبر و14 أكتوبر صراعات لم يسبق لها مثيل بين قوى التخلف العصبية الأسرية المناطقية والقبلية والدينية وبين قوى التحديث والتقدم المدنية، واستمر بعد الوحدة.

وعلى الرغم من أن الفترة التي سبقت الوحدة وتلك التي تلت الوحدة، لم تتح الفرصة للدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، باعتبارها مجالات ومناطق يحضر الاقتراب منها، بالتحليل والتقييم والنقد المنهجي أو محاولة استكشاف جوانب السلب والإيجاب فيها، ومنها مجالات السكان والتربية والتعليم والتنمية، كون هذه المجالات تعكس الواقع اليمني بمختلف جوانبه وأبعاده، وأن يستكشف منها الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري، ومدى تخلفه وامتداد خارطة الضعف والتخلف التي تغطي مختلف جوانبه.
المؤلف والباحث عبدالجليل عبدالغني الخرساني تناول في كتابيه الصادرين مؤخراً عن الهيئة العامة للكتاب بصنعاء العديد من تلك القضايا.

الكتاب الأول: السكان والتربية والتنمية: جدلية العلاقة، محاولة لتأصيل العلاقة بين تلك المتغيرات وتأكيدها لأول مرة في تاريخ الأدب العلمي، من أجل رؤى معرفية جديدة.
والكتاب الثاني: السكان والتربية والتنمية - خارطة القوة والضعف: حالة اليمن، هو أعمال تلك المعرفة، في بناء منظومة من المفاهيم للسكان والتربية والتنمية وللبنى السكانية والتربوية وللنظام التربوي وللبنى التنموية لأول مرة في تاريخ الأدب العلمي، واستخدام تلك المفاهيم في تحليل وتفسير مشكلاتنا السكانية والتربوية والتنموية، وتقييم ونقد القوى التي سيطرت على الدولة ونظامها السياسي ومؤسساتها السياسية التنفيذية والتشريعية والقضائية، لما من شأنه إلقاء الضوء على حقيقة واقعنا من أجل فهمه، وبهدف تحفيز التفكير والفعل
لدى مؤسسات الدولة، والقوى السياسية، ومؤسسات المجتمع المدني والباحثين، وخلق الوعي بها، وإحاطة القارئ معرفة بتلك القضايا وإثارة اهتماماته بها بكل موضوعية وتجرد ممكن منهجياً وسياسياً وبعيداً عن أجواء الإثارة والتشويه الذي يرافق عمليات تناول الواقع ومشكلاته، ومقاربتها، والتي عادة ما تسخر لخدمة أهداف سياسية ومصالح عصبية أسرية وقبلية ودينية، اجتماعية، واقتصادية والكتابان ليسا مؤلفين دعائيين، فإن ما سيعثر عليه القارئ من تحديد للمشكلات التي تكبل حركة تقدمنا والمنهجية التي انطلق الكاتب منها في مقاربة تلك الإشكاليات، والتي قامت على مقدمات قيمية ووطنية وعلمية محددة.
والكتابان بالدرجة الأولى هما محاكمات لممارسات سياسية واجتماعية عصبية، وتصحيح لمفاهيم مغلوطة أو قاصرة، وهو ما عمل الكاتب على تحميله مضمون الكتابين وبوعي منهجي بمعطيات وتفاصيل، وأرقام فعلية، ومؤشرات تعكس الواقع السكاني والتربوي التعليمي والتنموي غير العادي في زمن غير عادي، فالزمن يجري وليس في الجائز إضاعته، والوضع لا يسمح بانتظار اللحظة المثالية المناسبة، فهناك أجيال من اليمنيين عاشوا وماتوا دون الاعتراف حتى بحقوقهم التي كفلتها الشرائع والقوانين والمواثيق الدولية.
والكتاب عمل علمي يحاول استكشاف ميدان متكامل من المشكلات السكانية والتربوية التعليمية والتنموية، وتلك المجالات المتعلقة بالبنى التنظيمية للنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
وباعتبار السياسية وعلمها هي الأداة المنهجية الرابطة لمجمل جوانب حياة المجتمع، وأداة لتحليل وتفسير وفهم تلك القضايا الواقعة بين دفتي الكتابين، حيث كتبا وثمة رغبة علمية ووطنية، فإن الكاتب يعتقد أن الكل مسكونون بمصير اليمن وتقدمه، وإدراكه جيداً فإن على القوى الخيرة التلاقي لحل مشكلات البلد، ومع ذلك فالحوار يجب أن يجري ويسود، باعتبار هذا العمل إسهاما في تحديد وتعيين مشكلاتنا، وتحديد مستوى خطورتها، ومدى الحاحها في الضغط على الإنسان اليمني واستمرار مكابدته، والمرحلة المعقدة التي تمر بها بلدنا جاءت لتؤكد أن الواقع اليمني أكثر تعقيداً، وأن الواقع اليمني يحوي الكثير من المشكلات والتناقضات في بناه الوطنية القيمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

التجارة بالتعليم في الوطن العربي

صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت كتاب التجارة بالتعليم في الوطن العربي: الإشكاليات والمخاطر والرؤية المستقبلية للدكتورة محيّا زيتون.
يلقي هذا الكتاب الضوء على أهم المستجدات التي شهدتها أنظمة التعليم على الصعيد العالمي، وفي البلدان الغربية بوجه خاص، في ضوء تعمُّق العولمة في وجهها النيوليبرالي؛ ثم يتناول الكتاب الأوضاع الراهنة لقطاع التعليم في الوطن العربي، ويتعرض لمدى انكشاف أنظمة التعليم العربية وتأثرها بالمناخ العالمي؛ ويلقي الضوء على النماذج التي اتبعتها مجموعات من البلدان العربية لإحداث التحولات ذات الصلة بظاهرة الاتجار بالتعليم.

ويضع الكتاب رؤية مستقبلية لقطاع التعليم في الوطن العربي بناء على سيناريوهين يضع أحدهما هذا القطاع أمام مصير الاستمرار في مواجهة العواقب والمخاطر القائمة، ويتعامل الثاني مع الإشكاليات المختلفة من منظور الأهداف والمصالح الوطنية والقومية.
ويرى الكتاب إن ظاهرة العولمة التي أخذت تتعمق بوتيرة متسارعة في العقود الثلاثة الأخيرة امتزجت بالمنظومة النيوليبرالية التي مدت أذرعها لتتحكم بمختلف القطاعات الاجتماعية والثقافية والعلمية والتعليمية، لا الاقتصادية وحسب.
وفي سياق المزج بين العولمة والنيوليبرالية هذه، شهد قطاع التعليم في الوطن العربي، كما في العالم، تغيُّرات مهمة تمثّلت بتزايد دور الأبعاد التجارية والسوقية في التعليم، وتغيُّر الطبيعة الاجتماعية والتنموية لهذا التعليم، وتراجع دوره كخدمة عامة تهدف إلى تحقيق منافع اجتماعية.